

دور الأديب العربي في المعركة ضد الاستعمار الصهيوني

تقديم علي أحمد باكثير

العربية ، ورأى بوادر الضعف تدب في سلطانه ، فلجأ الى خطة تحول دون انبعاث الامة العربية ، وتضمن انشطارها الى الأبد ، وذلك باقامة حاجز بشري ، من عنصر غريب عرف طوال تاريخه بالحققد على غيره من الشعوب ، والتأمر عليها والإغراق في العنصرية ، والتمسك بتلسك الاسطورة الرجعية اسطورة الشعب المختار ، لينخذ له في فلسطين وطناً قومياً يتحول بعد ذلك الى دولة تشطر العالم العربي شطرين ، وتفصل مشرقه عن مغربه فلا يلتقيان أبداً ، فيضمن الاستعمار بذلك بقاء نيره على اعناقنا ، ودوام استغلاله لموارد بلادنا وثرواتنا الطبيعية ما ظهر منها وما لم يظهر اذ ذاك بعد .

غير ان شيئاً لم ينفذ الاستعمار القديم من مصيره المحتوم ، فسلم الارية للاستعمار الجديد ، الذي ما لبث ان فاق سلفه في امتصاصه لدماء الشعوب عن طريق مؤسساته وشركاته الاحتكارية الضخمة ، والذي اتخذته الصهيونية العالمية عبداً لها تأمره فيطيع ، وتقول له بعني شرف أمتك وكرامتها ومصالحها عند العرب فيبيع .

ونفذت الخطة التي دبرها الاستعمار ، وأقيمت الدولة الدخيلة في قلب الوطن العربي ، وارنكت اشنع جريمة سياسية عرفها التاريخ بين سمع العالم وبصره ، فكانت وصمة في جبين العالم المتمدن كله ، اذ سكنت شعوبه على هذه الجريمة الشنعاء ، بل وافقت دوله المستقلة التي كانت أعضاء في هيئة الامم المتحدة على هذه المؤامرة القذرة وعلى اعطائها صفة الشرعية بقبول اسرائيل عضواً في هيئة الامم .

ولا غرو أن يقاوم العرب هذا الكيان الدخيل من أول ما قام ويرفضوا الاعتراف به كامر واقع ويعملوا للقضاء عليه والتخلص منه ، لادراكهم الصادق ان هذا الشكل الجديد من اشكال الاستعمار أخطر عليهم من جميع اشكاله السابقة . فالأخطبوط الصهيوني لن يكتفي بابتلاع فلسطين وحدها بل يعتبرها منطلقاً الى سائر الارض العربية ، حيث يتحلب ريقه على الاجزاء الفنية الموارد منها ، ليقم عليها اسرائيله الكبرى .

وكان يريد أن ينفذ خطته هذه بالتدرج على مراحل ، ولكنه لحسن حظنا لم يستطع صبراً امام صلابتنا في رفض وجوده ، وامام جسعه هو وحمافته ، واطمئنانه الى مساندة الدول الاستعمارية له ، قام بالعدوان تلو العدوان ، حتى كان عدوان الخامس من يونيو هو الذروة . وكانت هزيمتنا في تلك الحرب كارثة قومية عظيمة لم يشهد تاريخنا النضالي لها مثيلاً قط في فداحة خسائرها وقلة خسائر العدو ، وفي شدة جرحها لكبرياتنا القومية ، الا انه كان من لطف الله بنا ان لم يمض وقت طويل حتى أدركنا ان تلك النكسة كانت بركة علينا ونقمة على العدو من عدة وجوه : -

اولها كانت كشفت للعالم اجمع ، وبصورة سافرة صارخة ، حقيقة هذه الدولة العنصرية العدوانية التوسعية التي اتخذها الامبرياليون قاعدتهم العسكرية الكبرى في الشرق الاوسط . وثانيها انها وضعتنا نحن العرب امام الاختيار الصعب اما نكون او لا نكون في وقت مبكر قبل ان يفوت الاوان فلا يبقى لنا قدرة على الاختيار .

وثالثها انها كانت سبباً في تصاعد المقاومة الفلسطينية الباسلة التي استطاعت في وقت قصير ان تأخذ زمام المبادرة من يد العدو فتحرمه أقوى سلاح في يده ، وأن تمرغ غطرسته العسكرية في التراب ، وتجعله يشمر لأول مرة منذ قيامه في سنة ١٩٤٨ ان الارض تنزل تحت

على كل مواطن عربي مهما تكن صفته ، وأيضا يكن مسقط رأسه ، من الوطن العربي الكبير ، أن يهتم بالمعركة المصيرية التي تخوضها أمته اليوم ، اهتماماً يقضي الى الوعي الصادق العميق ، الذي يدفعه الى الاسهام بالعمل في نصره قومه ، بكل ما يقدر عليه ، من حمل السلاح ان كان جلدًا قويا ، أو بذل للمال ان كان غنياً ، أو دفاعاً باللسان ان كان خطيباً ، أو بالقلم ان كان أدبياً .

وربما ظن أن الدفاع بالقلم من أضعف الإيمان وهذا غير صحيح فرب قلم يكون له من الأثر في تحريك الجماهير العريضة والهباب حماسها وتعميق وعيها ودفعها الى العمل ما يفوق كثيراً أثر السلاح الذي يحمله المقاتل في ميدان المعركة .

وحسبنا أن نتذكر كيف كان قائدنا الأعظم « صلى الله عليه وسلم » يعتمد على خطبائه وشعرائه في الذود عن الاسلام والمسلمين حتى انه كان يقول لشاعره حسان بن ثابت : « قل وروح القدس معك » .

ومع تطور أساليب القتال اليوم ، وبروز الرأي العام العالمي كسلاح من أمضى الأسلحة فيه ، واتساع ميادين الكفاح وتعددتها وتنوعها في العصر الحاضر ، وارتباط شعوب العالم بعضها ببعض ، وانهبهار الحواجز التي كانت تفصل بعضها عن بعض ، حتى أصبح العالم كله كأنه قرية واحدة ، اتسعت ايضاً مهمة الأديب وصارت تشمل الاهتمام بالسياسة العالمية وما يصطرع فيها من تيارات فكرية واقتصادية واجتماعية والاهتمام باوضاع الشعوب المختلفة وتكتلاتها واحلافها وما لذلك كله من أثر على وضع أمتة وبلادها .

وإذا كان هذا مهمة الأديب بعامة ، فمهمة الأديب العربي بخاصة ، أكبر وأخطر ، وأوجب وأصعب ، لان أمتنا العربية تواجه اليوم عداوة الاستعمار القديم والاستعمار الجديد والصهيونية مجتمعة ، أي أنها تكاد تواجه العالم كله اذا قدرنا ما لهذه القوى الجهنمية الثلاث من سلطان في العالم لا يدانيه سلطان .

لقد كنا نواجه الاستعمار القديم وحده منذ بداية القرن الماضي ، وكان الاستعمار في عنفوان قوته ، وكنا أشد ما تكون وهنا وضعفاً ، وتأخراً وانحطاطاً ، من جراء الاحتلال العثماني الذي جثم على بلادنا طوال أربعة قرون ، فاستطاع الاستعمار أن يحتل بلادنا في نهاية الامر . وقد حرص منذ البداية على تمزيق وحدتنا ، وتجزئتنا الى كيانات متعددة حتى لا تقوم لنا قائمة بعد ذلك . ولكن أمتنا نارت على القيد ، وقاومته بكل ما تملك من قوة ، فانفجرت في مختلف الاقطار العربية ثورات متعاقبة تنجح حيناً وتفشل حيناً ، ولكن قافلة الجهاد ظلت تسير نحو التحرر والاستقلال وشعلة الوعي القومي ظلت تتعاطم وتثير الطريق . وترنج الاستعمار من الضربات التي كبلت له هنا وهناك ، واخذ

يضعف وينهاوى سلطانه في كل مكان ، ولا سيما بعد الحرب العظمى الثانية ، فتححرر كثير من بلادنا تحرراً كاملاً وسار غيرها في الطريق . وكان خليقاً بامتنا ، ولا سيما بعد ما ظهر الذهب الأسود في جهات متعددة من أرضها ، أن تمضي قدماً في طريق معبد مأمون ، نحو مستقبل باهر وضاء تتم فيه نهضتنا الشاملة ، وتتحقق وحدتنا الكبرى التي لم يعد لنا غنى عنها ، وخاصة في هذا العصر الذي تسعى فيه الدول الى التوحد والتكتل حتى تضمن أمنها وسلامتها ، وتحفظ عزها وكرامتها ، في المعترك العالمي الرهيب .

أقول كان خليقاً بامتنا العربية ان يتحقق لها كل ذلك ، لولا ان الاستعمار كان قد احتاط لنفسه حينما آنس بوادر اليقظة في الامة

يكن سلطانه ، الا ان يرى وجه الحق فيرجع اليه فان الرجوع الى الحق فضيلة .

خامسا : ان يكون على وعي تام بالتاريخ النضالي لامته العربية منذ الحملات الصليبية والتتريية بل منذ ملاحمتنا مع الفرس ومع الروم في صدر الاسلام ، بل منذ اقدم من ذلك في الصراع الذي عانتسه الجزيرة العربية الام ذاتها ، والصراع الذي عانته قبل ذلك الاقطار الاخرى من العالم العربي ، ك مصر والعراق وسورية والشمال الافريقي، ضد العناصر المقيمة عليها من شرق او غرب . ان وعي الاديب العربي بهذه السلسلة المتصلة الحلقات من كفاح امته ضد اعدائها من الشرق او الغرب جدير ان يعينه لا شك على وضوح الرؤية وصدق الحدس وسلامة الحكم ، وان يملأ ثقته بخلود هذه الامة على الايام وثباتها دون الخطوب والزعازع .

سادسا : ان يعي دوره في المعركة فلا يبدد مواهبه فيما لا يجدي على المعركة شيئا بله ما يعطلها او يعوقها ، كاختيار الموضوعات المثبطة للهمم والموهنة للرزائم ، او انتحال البدع الادبية المنحرفة التي هي في بلادها نتاج اليأس الشائع هناك والانحلال والتمزق والضياع . فليس لنا ان نستنبهتنا عندنا مجازاة لتلك البلاد . اننا نعيش معركة ضارية ضد من يريدون سلب وجودنا ذاته فلا مكان في ادبنا لنفحات اليأس والضياع والشك والعبث والوهن .

سابعا : ان يؤمن بالوحدة العربية ايمانا صادقا يدفعه الى العمل على تحقيقها ، وتقريب المسافة من دونها ، بكل وسيلة يملكها . ومن اخطر الوسائل التي يملكها الاديب العربي حسن اختياره للغة التي يكتب بها ، فعليه ان يختار اللغة الفصحى فهي اللغة الجامعة ، المشتركة بيننا نحن العرب ، والا يكتب باللغة العامية الا عند الضرورة وفي اضييق الحدود .

اما في المجال العالمي ، فعلى الاديب العربي ان يراعي انه يخاطب شعوبا اجنبية تجهل الكثير من الحقائق التي تتصل بنا ، وتعيش في مجتمعات غير مجتمعتنا ، وتختلف عنا في آرائها ومعتقداتها واساطيرها وارتياداتها بغيرها من الشعوب ومواقفها من اصدقائنا واعدائنا على السواء ، فلنتراع ذلك كله اذا شئنا ان يكون لنا نصيب من النجاح في اقناع تلك الشعوب وعدالة قضيتنا ، واستمالتها الى تأييدنا ونصرتنا . ولا سبيل الى ذلك الا بالدراسة المستفيضة الواعية لتاريخ تلك الشعوب ، ولواضعها الحاضرة ، والامام بادابها وفنونها ، حتى يصل الاديب العربي الى الكلمة السواءلا خلاف فيها بيننا وبين تلك الشعوب ، فيتخذها اساس الحوار بيننا وبينه ، ومع التزام الانصاف في الحديث عن عدونا ما امكن ، فنلك اوقع في النفوس ، وابعت على الاقتناع وكتابتنا لخالد يقول لنا « ولا يجرمتم شتان قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى » .

ويجب كذلك التزام الموضوعية في العلاج ، والوقوف عند المنطق وعدم الانسياق مع العاطفة ، فالاسلوب العاطفي ان كان يفتنر احيانا في المجال المحلي ، حين تدعو الحاجة الى ذلك في بعض المواقف ، فهو في المجال العالمي غير مقبول على الاطلاق .

ومن الامور التي ينبغي ان يتوخاها الاديب العربي اشاعة الروح الانسانية فيما يكتب ، فالروح الانسانية الى جانب انها تثرى العمل الادبي ، وترفع من قدره وتثقل من وزنه فانها بعد مفتاح سحري يفتح مغاليق القلوب عند جميع الشعوب .

والكفاح الادبي في هذا المجال العالمي مهمة شاقة لا تفني فيها الجهود الفردية المتفرقة لاسباب كثيرة منها ان اللغة العربية ليست من اللغات المقروءة على نطاق واسع في العالم ، فلا غنى عن الترجمة الى اللغات العالمية ، والترجمة في ذاتها مشكلة ثم تأتي مشكلة النشر في دور النشر الاجنبية وتذو ليست هينة ولا سيما اذا علمنا ان للصهاينة سيطرة كبيرة على تلك الدور والمؤسسات .

ولا بد اذن من جهد جماعي يشرف عليه اتحاد ادباء العرب اوهيئة خاصة منبثقة منه ليتولى تنسيق العمل وتخطيطه على اساس مدروسة

قدميه وان الزمن لم يعد في صالحه ، وان وجوده في مهبط الرياح ، وان القوى الاستعمارية التي من ورائه ، ان استطاعت ان تحمي من القوى العربية الرسمية ، فانها لن تقدر على حمايته من هذه القوة (شعبية الهائلة التي تسميه في مقاتله ليل نهار ، ولا تدع له أي قرار ، ولن تكف عنه حتى تواريه التراب . ولو لم يكن لها الا انها ارتفعت بانفسية ، ومعها جماهير الامة العربية قاطبة ، من سفح المطالبة بازالة اثار العدوان ، الى قمة الاصرار على تصفية الكيان الصهيوني تصفية كاملة ، وتحرير فلسطين كل فلسطين ، لكفى بذلك فضلا :

حرب الغدا هي الطريق المثلى على العدو ستكون الفصلا توسعه في كل غفوة قنصلا ثم تزيل شخصه والظلا وتلك عقبى الفاصيين المعتدين

والان ما دور الاديب العربي في هذه المعركة ؟

انه لدور جسيم ، أولا - لجسامة المعركة ذاتها اذ نواجه القوى المالية الثلاث مجتمعة ، ولاتساع الجبهة التي نواجه اعداءنا عليها حتى تكاد تكون باتساع العالم كله .

وثانيا - لان عدونا الصهيوني قد اعتمد في نجاح حركته اعتمادا كبيرا منذ مؤتمر بال سنة 1897 على قوة الكلمة في مختلف صورها ، من ادب وصحافة واذاعة وشاشة كبيرة وصغيرة ، وبصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الحركات السياسية الاخرى . وقد ساعد على ذلك انتشار جالياته في اقطار العالم ، مما مكته من السيطرة الواسعة على اجهزة الاعلام المختلفة في شتى بلاد العالم ، بالاضافة الى التقاء اهدافه مع اهداف الاستعمار والامبريالية ، وبالاضافة الى الرواسب التاريخية الباقية في الفكر الغربي منذ الحروب الصليبية والتي تجعله مبعبا ضد العرب ، ومتعاطفا مع عدوهم الصهيوني ، الذي استطاع بدعايته الواسعة المتغلغلة في كل مكان ، ان يضل العالم كله عن حقيقته العدوانية العنصرية البشعة ، ويصور باطله حقا ، وحق العرب باطلا ، ويجعل المعتدين في صورة المعتدى عليهم ، والمعتدى عليهم في صورة المعتدين .

على ان جسامة المعركة لا ينبغي ان ترهب الاديب العربي او تحمله على اليأس ، بل هي احرى ان تدفعه الى العمل الدائب ، القائم على المعرفة والدراسة العميقة ، والعزم الصادق ، على ان تغطي الحواجز التي وضعها العدو دون بلوغ كلمتنا الى اسماع العالم فانه كان للعدو فضل السبق الى استخدام الادب وفن الكلمة في القيام بدعايته الواسعة قبلنا ، وكانت له ميزة الانتشار والتغلغل في العالم ، والسيطرة على الاجهزة الاعلامية في معظم دوله فحسبنا ان الحق في جانبنا والحق في ذاته قوة عظيمة اذا وجد من يدافع عنه بالحماسة والحسن ، وبالاخلاص والايامن والاصرار والاستماتة الى جانب التنسيق والتنظيم مع بذل أقصى الوسع للارتفاع بالصورة التعبيرية للعمل الادبي الى اسنى مراتب الابداع .

ان امام الاديب العربي مجالين للعمل ، المجال العربي او المحلي والمجال العالمي ، ولكل منهما اسلوبه ، ففي المجال المحلي ينبغي على الاديب العربي :-

اولا : ان يكون رائدا لامته يبصرها بالاطار التي تتهددها قبل وقوعها ، لتنتقيها او تستعد لدفعها ، حتى اذا وقع المحذور توجهت بكليتها لمقاومتها ومدافعتها والخلص منه .

ثانيا : ان يكون حكيما فيما يعالج من مشكلاتها وقضاياها فلا يبالغ في تضخيم المصائب والجهائم ولا في تهوينها حتى لا يميل بها الى اليأس والقنوط ، او الى الاستهانة والغرور .

ثالثا : ان يلتزم شرف الكلمة ويراعي ما يجب لها من امانة وصدق فلا يتملق الحكام وارباب المناصب رغبة او هبة ولا يداجي الخونة والعملاء والانهزاميين والانتهازيين ، من أي لون أو اتجاه ، ايثارا للسلامة وتنصلا من التبعية ، فان الساكت عن قول الحق شيطان اخرس .

رابعا : ان يعتز بكرامته واستقلال رايه فلا يبيعها بأي ثمن مهما

ويكون من مهامه ما يأتي : -

- ١ - اختيار وترشيح الاعمال الادبية التي ينبغي ان تترجم ثم العمل على ترجمتها ونشرها وتوزيعها في الخارج .
- ٢ - اغراء من تتوسم فيهم الخير من الكتاب الاجانب ذوي الشهرة الطائفة بالكتابة عن قضايانا العربية او في موضوعات نراها تخدم قضايانا او وجهة نظرنا ولو من بعيد ، وذلك بمختلف السبل ، من استفادهم لزيارة بلادنا واستضافتهم ، او الالتزام لهم بشراء كمية كبيرة من تلك الكتب عند طبعها .
- ٣ - العمل على افتتاح مراكز ثقافية خالصة ، « غير سياسية » في عواصم الدول الاجنبية المختلفة ، لتعليم اللغة العربية وآدابها ، لكل من يرغب من اهلها ، وللقاء محاضرات ثقافية عن كل ما يتصل بالحضارة العربية ، وعن ادابها وفنونها القديمة والمعاصرة . ولا بأس ان اشير هنا الى التجربة التي قام بها الاديب الشاعر الدكتور مختار الموكليل في العاصمة السويسرية ، فقد نجح هذا المشروع على يده نجاحا كبيرا هناك واقيمت الجماهير عليه عن حب وطواعية ، وكان لذلك اثر جميل في الدعاية غير المباشرة للعرب ولقصيدتهم السياسية اقوى واوسع من كل دعاية سياسية مباشرة .



بقيت نقطة في تكوين الاديب العربي ، اراها على قدر كبير من الاهمية ، لانها الاساس في كل ما ينبغي ان يكون عليه الاديب العربي ، ليكون اهلا للاضطلاع بتلك المسؤولية الكبرى مسؤولية الرائد لامته ، الترجمان لضميرها ، الشارح لحقها ، المدافع عن قضاياها ، المتكلم بلسانها ، وليؤدي دوره خير اداء في هذه المعركة المصرية التي نخوضها امتنا اليوم .

الا وهي ان يتحلى بصفة تعلو على الصفات كلها وتفوقها في الخطر والاهمية : واعني الاصاله العربية . والمقصود بالاصالة العربية هنا ان يكون الاديب عربيا في كل شيء وقبل كل شيء ، عربيا في شعوره وتفكيره ، ونظرته الى الكون والحياة ، عربيا في انتمائه واهتمامه واعتزازه بوطنه وامته .

عربيا في ايمانه بالحضارة العربية ، والحضارات التي قامت في مختلف اقطار وطننا العربي الكبير ، واعتبار كل اولئك حلقات في سلسلة ذهبية واحدة .

عربيا في ايمانه بالله وبالقيم الروحية السماوية ، وبالمثل العليا ، وبالباديء الخلقية الرفيعة ، اذ هذه من سمات امتنا العربية ومميزاتها ومقوماتها منذ كانت .

فالاديب العربي حقا هو الذي تكتل فيه هذه المعاني ، ولو كان يكتب بلغة اجنبية . والاديب تعوزه هذه المعاني او بعضها ، ليس في الحق ادبيا عربيا ، وانما هو اديب من العرب او اديب يكتب باللغة العربية .

وهذه الاصاله ليس معناها العزلة عن العالم ، او الانفلاق في ترائنا والتعصب له تعصبا يجعلنا في معزل عن العصر الذي نعيش فيه . بل على الاديب العربي ان يمثل جميع مشكلات عصره ، والافكار السائدة فيه ، ولكن على شرط ان ينظر الى كل ذلك بعين الانسان العربي الاصيل .

ان الذي يتأمل في المجتمع الثقافي عندنا والادباء في طليعة هذا المجتمع الثقافي بالطبع - ليرى ثلاثة وجوه متميزة : -

اول هذه الوجوه - بغير ترتيب - الوجه الماركسي ، بكل ما يحمله من مقومات فكرية وسياسية واجتماعية ، ايمان بالمادة وحدها وانكار للقيم الروحية ، وتركيز على الصراع الطبقي ، واعتبار كل سبيل او منهج لاقامة المجتمع الاشتراكي غير مقبول وغير مرضي عنه ، ما لم يكن نسخة طبق الاصل من المنهج اللينيني .

وثانيها الوجه الغربي بكل ما يحمله من نزعات رجعية ولبرالية وصليبية ووجودية وعمدية وعشبية ولا معقولة ، وجه يرى لا حضارة الا حضارة الغرب ، ولا فن الا فن الغرب ، ولا اشتراكية الا اشتراكية

الغرب ، ولا ديمقراطية الا ديمقراطية الغرب ، ولا دين الا دين الغرب ، وهو يعلموا لا يعلم ان من وراء ذلك كله التخطيط الاستعماري الرهيبة بمؤسساته وشبكة مخابراته .

وثالثها : هو الوجه العربي الاصيل الذي يتمسك بمقومات امته العربية ، وبقيمتها الروحية والادبية والانسانية ، ويعتز بتاريخه العريض الطويل الحافل بالامجاد ، وينفتح مع ذلك على الثقافات العالمية ، بمختلف ألوانها ، وشتى اتجاهاتها ، فلا يزيد انفتاحه عليها ، واستيعابه لها ، الا ترسيخا لاصلته العربية وتنمية وبلورة .

فمثله كمثل النحل ، يشنار الرحيق الثقافي من كل زهر وكسل بستان في العالم ، فيحيله شرابا عربيا ، مختلفا ألوانه فيه شمسافا للعرب وللناس .

هذا الوجه الثالث هو الذي نتطلبه في معركتنا هذه ضد الصهيونية والاستعمار ، ولا نقصد بهذا ان الوجهين الاخرين لا يحق لهما الاشتراك في المعركة ، فكل مواطن عربي من حقه بل من واجبه ان يقوم بنفسه ، ولكننا نقصد ان السبيل الامثل للجهاد الادبي في هذه المعركة الضاربة ، الطويلة الامد ، المتشعبة الاطراف ، المتسعة الوقعة ، هو سبيل الوجه العربي الاصيل .

ان هذا السبيل لا يتلوي بسالكه عن القصد ، ولا ينحرف به عن الجادة ، ولا يرضى له ان يضحي بقيمة ثابتة في سبيل مكسب عاجل او يشفي داء ليضع مكانه داء آخر . انه السبيل المستقيم الواضح ، الذي يوصل الى الهدف الاسمي ، من اقصر الطرق ، وباقل التكاليف ، وعلى احسن الوجوه .

ذلك انه هو السبيل الوحيد - على خلاف السبيلين الاخرين - الذي لا يرضى لسالكه التبعية ، من أي نوع كانت ، ولاي جهة اجنبية ، بل يفرض عليه بطبيعته ومن تلقاء نفسه الاستقلال في الرأي ، وايتار المصلحة العربية في نطاقها الشامل المتكامل ، على أي اعتبار آخر خارج هذا النطاق .

ولا احب ان اترك هذه النقطة ، دون ان اضرب لكم امثلة مما نشر في بعض صحفنا العربية ، توضح هذا المعنى الذي اشرت اليه . فقد نشر احد كتابنا الصحفيين مقالا عقب النكسة ، زعم فيه اننا هزمنا امام اسرائيل هزيمة حضارية ، أي ان اسرائيل في الحقيقة لم تهزمت عسكريا بل حضاريا . وايا كان قصد الكاتب ، فمما لا شك فيه انها زلة كبيرة ، جره اليها انه ينظر الامور بعين غير عربية . عيب امرئ لا يؤمن بقيم الحضارة العربية بل لعله لا يرى للعرب سبيلا الى النهضة الا بالتخلي عن تلك القيم الحضارية كلها . والا فكيف يزعم عربي معدود في المثقفين بان اولئك الذين ارتكبوا الفظائع المخزية في دير ياسين ، وناصر الدين وقبية والسموع متفوقون علينا حضاريا ، ولذلك هزمونا في الخامس من يونيو ؟

ان كاتبنا هذا ، انما استعار هذا الرأي او استورده ، او اقتبس منه او استوحاه ، او استنار به ، من تلك الفكرة الساذجة ، التي يتقبلها المصللون في الغرب ، ومؤداها ان معركة الصهيونية مع العرب ، هي معركة الانسان المتحضر مع الانسان البدائي ، تماما كما كانت معركة المعمر الامريكي مع الهندي الاحمر .

وكان ينبغي ما دام لا يقبل الرأي الا من الاجانب ان يستتير الرأي من اجنبي خبير بالموضوع ، وعلى شيء من الانصاف .

هذا الجنرال كارل فان هورن ، الذي احتك احتكاكا بالعبس والاسرائيليين على اعلى المستويات وادناها ، خمس سنين كاملة ، وسجل انطباعاته هذه في كتابه « الخدمة العسكرية من اجل السلام » يقول : « قد يكون العرب متعصبين في بعض الاحيان ، ومتصلبين بلومنتيين ، ولكن طرائقهم في السلوك ، كانت دائما ارفع واكثر حضارة من طرائق الاسرائيليين . » ويشير في موضوع آخر من كتابه الى المسال والجهود التي بذلها الاسرائيليون من اجل افساد رجال الامم المتحدة عن طريق الفتيات الاسرائيليات الجميلات اللاتي يسرحن من الخدمة العسكرية للقيام بواجبات خاصة .

ومثل ثان في هذا الصدد . في هذا الوقت الذي نتطلع نحن العرب فيه وينتطلع العالم الى اعمال المقاومة الفلسطينية بأعجاب واكبار، بل نرى فيها السبيل الوحيد لتصفية الكيان الصهيوني نهائيا والقضاء عليه ، نجد مجلة عربية اخرى تنشر بحثا طويلا حول شرعية هذه المقاومة اذا كانت غير قائمة على مذهب اجتماعي معين . في هذا البحث يحاول الكاتب الذي يرد على مقال اخر ، ان يثبت شرعية تلك المقاومة ، باسناد ينقلها عن لينين ، كانما نحن امة لم تعرف الجهاد في سبيل الحق والكرامة من قبل ، وكاننا لا يجوز لنا اليوم ان نقوم باي عمل ولو كان في مقاومة اعدائنا الصهاينة الا اذا وجدنا في اقوال لينين ما يفتينا بجواز ذلك العمل ..

ومن هذا القبيل ايضا ما تردد على اقلام بعض كتابنا منذ النكسة، وهو ان هذا العنوان الصهيوني الاستعماري في الخامس من يونيو ، لم يستهدف غير النظم الاشتراكية التقدمية في العالم العربي ، لاسقاطها والقضاء عليها ، ولست ادري كيف يففل اولئك الكتاب عن تاريخ الصهيونية وتاريخ غزوها لبلادنا والا فان نظرة عجلى الى ذلك ، خليفة ان تفتح عيونهم على ان الصهيونية ، والاستعمار من ورائها ، حينما بدأت في اقامة كيانها الدخيل في بلادنا لم يكن في بلادنا حينئذ دولة اشتراكية واحدة .

ان مثل هذه الفكرة الخاطئة لا تخدم غير الاستعمار والصهيونية . اولاً : بما تشير به بين الدول العربية ذات الانظمة من خلاف وتفرقة وتبذر بينها من شك وقلة ثقة .

ثانياً : بما تحفقه للصهيونية من هدف عظيم ظلت تخطط له من قديم ، وهو ايهام العالم بان كفاحنا نحن العرب ضدها ، وضد الاستعمار الذي يساندها ليس حقيقة قائمة بذاتها وانما هو مظهر من مظاهر الصراع بين المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي ، ويترتب على ذلك انه لو ساند المعسكر الشرقي اسرائيل يوما ما كما فعل من قبل عند قيامها سنة ١٩٤٨ او لو تقلب الحزب الشيوعي في اسرائيل ، فحولها الى دولة اشتراكية تناصر موسكو ونادي واشنطن لوجب علينا حينئذ ان نقطع الكفاح ضدها ونبارك كيانها الدخيل ونعترف بها . ومن الواضح ان هذا باطل كبير ، والحق الذي لا يحتاج الى بيان الا عند من يخضع في رايه لتسوية مذهبية اننا تكافح الكيان الصهيوني الدخيل الذي اقامه الاستعمار في قلب وطننا العربي بالقوة ، كاننا ما يكون مذهبه السياسي او الاجتماعي ، وسنظل تكافحه حتى نقضي عليه .

وهذا التصليل الذي نجحت الصهيونية العالمية في اشاعته كان له اثر خطير في تعبئة الشعوب العام (في امريكا واوروبا الغربية) ضدنا ولصالح اسرائيل اذ توهمت تلك الشعوب اننا لا تكافح اسرائيل باعتبارها كيانا عنصريا دخيلا اغتصب وطننا من اوطاننا وشرد شعبه ويهدد وجودنا في المستقبل ، وانما تكافحها لانها اختارت الوقوف الى جانب الدول الرأسمالية الغربية لتحمي لها مصالحها في الشرق الاوسط بينما نحن اخترنا الوقوف الى جانب الدول المناهضة لها وهي الدول الشيوعية .

واذا كنا لا نهتم بحكومات تلك الدول الغربية الاستعمارية لعلمنا انها لن تتخلى ابدا عن تأييد اسرائيل التي من صنع يديها ، مهما حاولنا ذلك ، فان موقفنا من شعوب تلك الدول وجماهيرها يجب ان يكون مختلفا ، فعلينا ان نواصل الكفاح لاستمالة تلك الشعوب لتأييد حقنا وذلك بتوضيح الحقائق لها وفي مقدمتها هذه الحقيقة الاساسية الكبرى حقيقة صراعنا مع اسرائيل .

وربما اعترض معترض باننا نحتاج الى الوجه الاول ليقوم بدور كبير في توثيق روابط الصداقة والتعاون بيننا وبين المعسكر الاشتراكي الصديق ، ولا نستغني عن الوجه الثاني ، ليكون اداة فعالة في كسب عناصر مناصرة لنا في المعسكر الغربي كذلك .

وجوابنا على ذلك اننا ما نظن ان كسب الانصار من المعسكر الغربي لقبضتنا يستحق منا ان نضحى بذانيتنا الحضارية والثقافية

في سبيله . واما بالنسبة الى المعسكر الاشتراكي فمن حسن حظنا ان هذه الدول الاشتراكية ، وشعوبها المحبة للسلام ، المعادية للاستعمار ، لا تلزمنا ولا تشترط علينا ان ننسخ من ذاتينا العربية هذه لنفوز بصداقتها ومناصرتها ، وتلك حقيقة اثبتتها التجربة الفعلية في علاقاتنا مع هذه الدول وشعوبها ، وتعاونها معنا تعاوناً مخلصاً في محاربة عدونا المشترك : الاستعمار .

بل ان كثيرا ممن يحملون هذا الوجه الاول من مثقفينا كانوا اداة تنفير من هذه الدول الاشتراكية الصديقة ، ونوهين للروابط بيننا وبينها ، بما يمارسونه في مجتمعنا الادبي والفني من ارهاب فكري وتواطؤ منسق على اضهاد الكفالات الادبية والفنية التي لا تنتسب الى شلتهم ، وهم يتصرفون كأنهم سفراء المعسكر الاشتراكي بيننا فيشوهون بذلك صورته ويسبئون الى سمعته ، والمعسكر الاشتراكي منهم ومن أعمالهم براء .

وان الذين اتيح لهم منا زيارة الاتحاد السوفياتي ، والاتصال بادبائه ، ليرون هذا التباين الكبير بينهم ، وبين ادبائنا هؤلاء الذين يحملون هذا الوجه المستعار ، الذين لا ينسون احقادهم الصغيرة ، حتى في اخرج الاوقات عقب النكسة حيث يجب تناسي الخلافات كلها ليتفرغ الجميع للمعركة .

ولا يتوهمن متوهم اننا نريد بهذا ان نحجر على حرية الفكر في بلادنا ، او ان نوجب على ادبائنا التزام مذهب فكري واحد لا يتعدونه الى غيره ، فحرية الفكر يجب ان تكون مكفولة للجميع ، لانها في حد ذاتها مطلب اساسي لا غنى لمجتمعنا العربي عنه باي حال ، فضلا على انها سمة بارزة من سمات حضارتنا العربية في عصورها الزاهرة .

ولكن المعركة التي تخوضها اليوم امننا ، والتي يتوقف عليها مستقبلنا لاجيال ، بل يتوقف عليها وجودنا ذاته ، تجعل حقا علينا الا نولي قياداتنا الفكرية والثقافية والاعلامية والتربوية الا للذين تتوافر فيهم ، الى جانب كفايتهم ومواهبهم تلك الاصالاة العربية التي وصفناها، وذلك لضمان انتصارنا بعون الله وتأييده ، الانتصار الصحيح الشامل الكامل .

ويطيب لي في الختام ايها الاخوة ان اتمثل بكلمات مضيئة في هذا المعنى ، القاها الرئيس جمال عبد الناصر في افتتاح عيد القاهرة الالفي اذ قال حفظه الله وأبده « التطور الصحيح امتداد للتاريخ ، وليس انقطاعا عنه ، بل ان الثورة ، وهي اسرع درجات التطور ليست في حقيقة امرها ، الا محاولة مكثفة للحاق بحركة التاريخ ، والانسجام معها ، والسير فيها نحو التقدم . »

علي احمد باكثير

القاهرة

زوروا

مكتبة الفجر

بواد مدني - السودان

ص. ب ٣٥١ - تلفون ٥٥٧

كتب علمية وسياسية وادبية